

الشعر العربي وصوت البيئة :

قراءة في الانساق الايكولوجية للنص الشعري العربي القديم

Arabic Poetry and the Voice of the Environment:
A Reading of the Ecological Patterns in Classical Arabic Poetic Texts



د. سمية صالح *

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

salhi-soumaia@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2026/03/01 تاريخ القبول 2026/05/24 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين الشعر العربي القديم والبيئة من منظور النقد الإيكولوجي، ساعيةً إلى الكشف عن الأنساق البيئية التي تشكّل بنية النص الشعري، وتُظهر أن عناصر الطبيعة كالصحراء والمطر والنجوم لم تكن مجرد خلفية وصفية، بل شكّلت سندًا وجوديًا ودلاليًا للشاعر، كما تبرز الدراسة أن الشعر القديم يتضمن وعيًا بيئيًا قائمًا على الانسجام والتفاعل مع الطبيعة، مما يتيح للنقد الإيكولوجي أفقًا جديدًا لإعادة قراءة التراث الشعري وربطه بقضايا البيئة المعاصرة وبناء وعي ثقافي وبيئي بديل يساهم في تطوير الدراسات الأدبية العربية المعاصرة وتعميق فهم علاقة الإنسان بمحيطه الطبيعي والثقافي.

الكلمات المفتاحية: الشعر الجاهلي؛ الايكولوجيا؛ البيئة؛ الأنساق؛ بنية النص الشعري.

Abstract:

This study examines the relationship between classical Arabic poetry and the environment through an ecocritical perspective, aiming to

* المؤلف المراسل

uncover the ecological patterns that shape the poetic text. It demonstrates that natural elements such as the desert, rain, and stars were not merely descriptive backdrops, but constituted an existential and symbolic foundation for the poet. The study also reveals an environmental awareness rooted in harmony and interaction with nature, highlighting the potential of ecocriticism to offer new interpretive approaches to Arabic literary heritage and to foster a deeper cultural and ecological consciousness.

key words Pre-Islamic Poetry; Ecology; Environment; Patterns; Structure of the Poetic Text;

مقدمة:

شهدت العقود الأخيرة بروز ما يُعرف بـ"النقد الإيكولوجي" (Ecocriticism) بوصفه مقارنة نقدية تسعى إلى رصد العلاقة بين الأدب والبيئة، وكيفية إسهام النص الأدبي في تشكيل وعي إيكولوجي مقاوم للتدمير البيئي الذي أنتجته الحداثة الصناعية، وإذا كان هذا النقد قد ترعرع في السياق الغربي مع كتابات لورنس بويل وشيري جلوتفيلتي، فإن الشعر العربي المعاصر بدوره قد انفتح على هذه الرؤية عبر مساءلة العلاقة بين الإنسان والمكان، والبحث عن صوت الطبيعة في مواجهة الهيمنة التقنية والخراب الإيكولوجي.

تسعى هذه الدراسة إلى قراءة الشعر العربي القديم من منظور إيكولوجي، بوصفه نصاً قادراً على إعادة تفعيل علاقة الإنسان ببيئته، وإبراز أصوات "الطبيعة" كحضور فاعل ومقاوم في النصوص الشعرية.

انطلاقاً من هذا السياق، يطرح هذا المقال إشكالية مركزية مفادها: كيف يتجلى صوت البيئة في الشعر العربي القديم؟ وبأي طرائق يعيد النص الشعري صياغة العلاقة مع الطبيعة بوصفها ذاتاً فاعلة لا موضوعاً صامتاً؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب قراءة معمقة للانساق الإيكولوجية في النص الشعري العربي القديم، ورصد مستويات توظيف الصور البيئية (طبيعة، عناصر كونية، حيوانات، نباتات) باعتبارها حوامل دلالية

وأيدولوجية في الوقت نفسه، فكيف يشتبك الشعر العربي القديم مع البيئة ضمن أفق نقدي إيكولوجي؟ وإلى أي مدى يعيد النص الشعري تشكيل وعي بيئي بديل، يجعل من الطبيعة شريكاً في بناء المعنى والهوية؟ فالنصوص الشعرية التي نقرأها اليوم تحمل - إلى جانب همومها الإنسانية - وعياً بيئياً متصاعداً، يتجلى في لغة الصور، وأنساق المجاز، وإيقاعات النص التي تحاكي دورات الطبيعة في تجدها وانكساراتها.

يهدف هذا العمل الى الوصول الى جملة من المرامي متمثلة في:

1. رصد تمثيلات الطبيعة والبيئة في الشعر العربي القديم.
 2. الكشف عن الأنساق الإيكولوجية (الانسجام/الخراب/المقاومة) داخل النصوص الشعرية.
 3. المساهمة في إثراء الدرس الأدبي العربي من خلال مقارنة جديدة تفتح على الدرس البيئي العالمي.
 4. اقتراح رؤية تحليلية جديدة تقرأ الشعر العربي من منظور "الإيكولوجيا الثقافية".
- اعتمدنا في هذه الدراسة على منهج تحليلي-وصفي ينطلق من النصوص ذاتها، وبالمفاهيم الإيكولوجية لتفكيك أنساق الصور ودلالاتها، لأن المنهج الإيكولوجي النقدي Ecocriticism بوصفه مقارنة عابرة للتخصصات، تجمع بين النقد الأدبي والعلوم البيئية والفلسفة، مع الاستعانة بمفاهيم الإيكولوجيا العميقة (Deep Ecology) التي ترى أن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة.

بالنسبة للدراسات السابقة، فقد شهدت الدراسات العربية في العقدين الأخيرين إرهاصات هذا الاتجاه من خلال محاولات متفرقة؛ مثل كتاب «الأدب والبيئة: مدخل إلى النقد الإيكولوجي» لعبد الكريم بدر (2018)، ودراسة فاطمة الحسن «الطبيعة في الشعر العربي الحديث: مقارنة بيئية» (مجلة الآداب العربية، 2021)، بالإضافة إلى مقالات متفرقة في مجلات عربية تناولت علاقة الأدب بالبيئة، غير أنّ هذه الدراسات

غالبًا ما توقفت عند حدود الوصف ولم تتوغل في تحليل الأنساق الإيكولوجية كخطاب متكامل في النص الشعري، من هنا تأتي أهمية هذه الورقة التي تسعى إلى بناء مقارنة تحليلية جديدة أكثر عمقًا.

المبحث الأول:

مفهوم الإيكولوجيا بين العلم والفكر

يشكّل مفهوم الإيكولوجيا أحد المفاهيم المركزية التي شهدت تحولًا نوعيًا من حقل العلم الطبيعي إلى فضاء الفكر الفلسفي والثقافي، إذ لم يعد مقتصرًا على دراسة العلاقات البيولوجية بين الكائنات الحية وبيئاتها، بل أصبح >إطارًا معرفيًا شاملاً يعيد مساءلة موقع الإنسان داخل المنظومة الكونية>، وقد ظهر المصطلح لأول مرة مع عالم الأحياء الألماني إرنست هيكل في القرن التاسع عشر، ليعبر عن علم يدرس تفاعل الكائن الحي مع محيطه، غير أنّ تطوّر الأزمات البيئية في العصر الحديث أسهم في توسيع دلالاته، ليتجاوز حدوده العلمية نحو أفق فلسفي وأخلاقي يعيد التفكير في علاقة الإنسان بالطبيعة.

وفي هذا السياق، تحوّلت الإيكولوجيا من >مجرد علم وصفي إلى رؤية فكرية نقدية ترفض مركزية الإنسان المطلقة، وتؤكد مبدأ الترابط والتكامل بين جميع عناصر الوجود>، وهو ما تجلّى في أطروحات الإيكولوجيا العميقة عند آرنه ناييس، التي تنادي بالاعتراف بالقيمة الذاتية للطبيعة، وكذلك في الإيكولوجيا الاجتماعية عند موراى بوكتشين، التي تربط الأزمة البيئية بالبنى الاجتماعية وأنماط الهيمنة، وبذلك، لم تعد الإيكولوجيا مجرد مفهوم علمي، بل أصبحت نسقًا فكريًا وثقافيًا يتيح مقارنة جديدة لفهم الإنسان والطبيعة بوصفهما كيانًا متكاملًا، الأمر الذي مهّد لظهور مقاربات نقدية معاصرة، من أبرزها النقد الإيكولوجي، الذي يسعى إلى إعادة قراءة النصوص الأدبية في ضوء علاقتها بالبيئة وتمثالاتها الرمزية.

المطلب الأول: الإيكولوجيا: من البيولوجيا إلى الفلسفة:

ظهر مصطلح "الإيكولوجيا (Ecology)" في القرن التاسع عشر مع عالم الأحياء الألماني إرنست هيكل، ليشير إلى دراسة العلاقات بين الكائنات الحية وبيئاتها، لكن المفهوم سرعان ما خرج من حقل البيولوجيا الضيق ليتسع في القرن العشرين إلى مقارنة فلسفية وأخلاقية تعيد التفكير في موقع الإنسان داخل المنظومة البيئية.

المطلب الثاني: الإيكولوجيا العميقة والإيكولوجيا الاجتماعية:

• الإيكولوجيا العميقة: (Deep Ecology) أسسها آرنة نايس (Arne

Naess)، وتقوم على رفض مركزية الإنسان

(Anthropocentrism)، معتبرة أنّ للطبيعة قيمة جوهرية مستقلة عن

المنفعة الإنسانية¹.

• الإيكولوجيا الاجتماعية: (Social Ecology) طرحها موراي بوكتشين

(Murray Bookchin)، معتبراً أنّ الأزمة البيئية ليست منفصلة عن البنى

الاجتماعية والسياسية، بل هي نتاج أنماط الهيمنة واللاعادلة².

المطلب الثالث: من الطبيعة إلى الثقافة:

يمثل الانتقال من الطبيعة بوصفها موضوعاً علمياً إلى الثقافة بوصفها نسقاً رمزياً أحد أهم التحوّلات المعرفية في الفكر المعاصر، إذ لم تعد البيئة تُفهم فقط باعتبارها منظومة بيولوجية تتكوّن من عناصر مادية كالماء والهواء والتربة والكائنات الحية، بل أصبحت تُقرأ أيضاً بوصفها نصّاً ثقافياً يحمل دلالات رمزية، ويعكس أنماط تفكير الإنسان وتمثلاته للعالم. فالعلاقة بين الإنسان والطبيعة لم تكن يوماً علاقة مادية خالصة، بل كانت دائماً مشبعة بالمعنى، حيث تحوّلت عناصر الطبيعة إلى رموز ثقافية تعبّر عن الوجود الإنساني، فالسماء مثلاً ترمز إلى العلو والقدر، والمطر إلى الخصب والتجدد، والصحراء إلى

الاختبار الوجودي والحرية، وهو ما يجعل الطبيعة جزءًا من البنية الرمزية التي تشكّل الوعي الإنساني.

وقد أسهم هذا التحوّل في إعادة النظر إلى البيئة باعتبارها مكوّنًا من مكوّنات الثقافة، لا مجرد إطار خارجي لها، إذ إن الإنسان لا يعيش في الطبيعة فقط، بل يعيش أيضًا في تصوّراته عنها، وفي الصور التي يبنّيها داخل اللغة والأسطورة والأدب. ومن هنا أصبحت الطبيعة حاضرة في النصوص الأدبية بوصفها فاعلاً دلالياً يسهم في إنتاج المعنى، وليس مجرد خلفية صامتة للأحداث، فالنص الأدبي يعيد تشكيل الطبيعة عبر اللغة، ويمنحها صوتاً رمزياً، فتتحوّل من عنصر مادي إلى كيان ثقافي يحمل أبعاداً جمالية وفلسفية، ويعبّر عن قلق الإنسان وأسئلته الوجودية وعلاقته بالعالم.

وفي هذا السياق، برز النقد الإيكولوجي بوصفه مقاربة نقدية تسعى إلى دراسة الكيفية التي تمثّل بها النصوص الأدبية البيئة، وتحليل العلاقة بين الثقافة والطبيعة داخل الخطاب الأدبي. وقد عرّفت شيريل غلوتفلي النقد الإيكولوجي بأنه دراسة العلاقة بين الأدب والبيئة الفيزيائية، وهو تعريف يبرز الطابع التفاعلي بين النص والعالم الطبيعي، كما يرى لورنس بويل أن النصوص الأدبية تسهم في تشكيل الوعي البيئي، لأنها لا تكتفي بعكس الواقع الطبيعي، بل تعيد تأويله وتمنحه أبعاداً أخلاقية وثقافية، وبذلك أصبح الأدب فضاءً لإعادة التفكير في علاقة الإنسان بالطبيعة، والكشف عن أنماط الهيمنة أو الانسجام التي تحكم هذه العلاقة.

إن هذا الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة يعكس تحوّلًا في وعي الإنسان بذاته وبمحيطه، حيث لم تعد الطبيعة تُحتزل في بعدها المادي، بل أصبحت جزءًا من الذاكرة والهوية والخيال، ومن هذا المنظور، يمكن النظر إلى النصوص الأدبية، ولا سيما الشعر، بوصفها حوامل لذاكرة بيئية تحفظ أثر العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وتكشف عن أنماط التفاعل والتكامل بينهما.

وهكذا، فإن البيئة، حين تدخل مجال الثقافة، تتحوّل إلى خطاب يحمل رؤى جمالية وفلسفية، ويصبح الأدب أحد أهم الوسائط التي تعبّر عن هذا التحوّل، مما يفسح المجال أمام النقد الإيكولوجي ليؤسس قراءة جديدة للنصوص، تكشف عن الأبعاد البيئية الكامنة في بنيتها، وتسهم في بناء وعي ثقافي يعيد الاعتبار للطبيعة بوصفها شريكاً في الوجود، لا مجرد موضوع للهيمنة أو الاستهلاك.

المبحث الثاني:

النقد الإيكولوجي (Ecocriticism) :

الفرع الأول: نشأته في الغرب:

تبلور النقد الإيكولوجي في ثمانينيات القرن العشرين بالولايات المتحدة، مع أعمال لورنس بويل (Lawrence Buell) وتشيريل غلوتفلي (Cheryll Glotfelty) وقد عرّفته غلوتفلي (Glotfelty) بأنه <<دراسة العلاقة بين الأدب والبيئة الفيزيائية >>³ الفرع الثاني: أبرز محطاته:

- المرحلة الأولى (1980-1990-) : تركيز على الطبيعة الكلاسيكية في النصوص الأدبية.
- المرحلة الثانية (2000) : توسيع الاهتمام ليشمل قضايا العدالة البيئية وربط الأدب بالسياسة.
- المرحلة الثالثة (2010) : انفتاح على ما بعد الإنسانية (Posthumanism) والمادية الجديدة⁴ (Iovino & Opperman)

الفرع الثالث: أدوات النقد الإيكولوجي:

- تحليل الصور الطبيعية: النبات/الحيوان/الماء/الهواء
- تفكيك الفضاء النصي: المكان الطبيعي/المكان الصناعي.
- رصد الاستراتيجيات البلاغية: التشخيص، الاستعارة الكونية.

- تتبع علاقة النص بالعدالة البيئية والسياسات المناخية.

المبحث الثالث:

النقد الإيكولوجي في السياق العربي:

لم يظهر النقد الإيكولوجي عربياً في صياغة منهجية إلا حديثاً، إذ اقتضت الإشارات الأولى على مقالات متفرقة منذ تسعينيات القرن الماضي، ركزت على الجانب الوصفي للطبيعة.

الفرع الأول: دراسات أكاديمية حديثة:

من أبرز المحاولات: >> كتاب عبد الله العطوي *النقد الإيكولوجي: مدخل إلى دراسة الأدب والبيئة* (2018)، الذي يعدّ محاولة جادة لتوطين المفهوم في النقد العربي <<⁵

الفرع الثاني: إشكالات التلقي العربي:

- محدودية الترجمة: ندرة الترجمات العربية للمراجع التأسيسية.
- الميل الجمالي: التركيز على الطبيعة كعنصر وصفي فقط.
- غياب المؤسسات: نقص المراكز البحثية المتخصصة في الأدب والبيئة⁶.

المبحث الثالث:

الشعر العربي القديم والإيكولوجيا:

يمثّل الحديث عن الشعر العربي القديم والإيكولوجيا مدخلاً تأويلياً جديداً لإعادة قراءة التراث الشعري في ضوء التحوّلات النقدية المعاصرة، ولا سيما ما أفرزه النقد الإيكولوجي من مفاهيم تعيد مساءلة علاقة الإنسان بالطبيعة، فإذا كان مصطلح الإيكولوجيا قد نشأ في سياق علمي حديث مع إرنست هيكل ليشير إلى دراسة العلاقات بين الكائنات الحية وبيئاتها، فإنّ هذا البعد العلاقي لم يكن غائباً عن التجربة الشعرية العربية القديمة، وإنّ لم يُصغ في إطار نظري صريح.

لقد تشكّل الشعر العربي القديم في بيئة صحراوية قاسية، حيث كانت الطبيعة عنصراً محدّداً لوجود الإنسان ومصيره، لا مجرد خلفية جمالية، فالصحراء، والمطر، والرياح، والنجوم، والحيوان، والنبات، كلها عناصر اندمجت في النسيج الشعري بوصفها مكوّنات حيوية في بناء الصورة والمعنى، ومن هنا يمكن القول إن العلاقة بين الشاعر الجاهلي وبيئته كانت علاقة اندماج وتفاعل، تقوم على الاعتماد المتبادل بين الإنسان والطبيعة، في سياق وجودي تتحكّم فيه شروط العيش والبقاء. إن قراءة الشعر العربي القديم من منظور إيكولوجي لا تعني إسقاط مفاهيم حديثة عليه بقدر ما تعني الكشف عن الأنساق البيئية الكامنة في بنيته، ورصد طرائق تمثّل الطبيعة داخله: هل تظهر بوصفها فضاءً للانسجام؟ أم مجالاً للصراع؟ أم سنداً للهوية والذاكرة؟ فالمعلقات، على سبيل المثال، تقدّم صورة مكثّفة لعلاقة الإنسان بالمكان، حيث تتحوّل الأطلال إلى ذاكرة بيئية، ويتحوّل المطر إلى رمز للخصب والتجدد، وتغدو النجوم دليلاً للهداية والثبات.

وبذلك، فإنّ استحضار الإيكولوجيا في دراسة الشعر العربي القديم يفتح أفقاً جديداً لفهم هذا الشعر بوصفه نصّاً يعكس وعياً بيئياً عميقاً، حتى وإن لم يُصغ في خطاب نظري معاصر، إنّه وعي يتجلّى في الإحساس بقوة الطبيعة، والاعتراف بسلطانها، والاندماج في دوراتها، مما يجعل الشعر العربي القديم مجالاً خصباً لإعادة القراءة في ضوء مقاربات عابرة للتخصصات، تربط الأدب بالفكر البيئي، وتكشف عن البعد الكوني في التجربة الشعرية العربية.

الفرع الأول: الطبيعة في الشعر العربي القديم:

شكّل الشعر الجاهلي — وبخاصة المعلقةات — مرآة للحياة البدوية في شبه الجزيرة العربية.

في هذا السياق، لم تحضر الطبيعة كعنصر جمالي أو كقضية إيكولوجية بالمعنى الحديث، بل كانت النسيج الوجودي الذي يتنفس فيه الإنسان العربي، الطبيعة كانت الحاضن، والرفيق، والمهدّد في الآن ذاته، لذلك نجد أن حضورها في النص الشعري يتجاوز الزخرف، ليصبح سندًا وجوديًا يحفظ للإنسان هويته وكيانه.

الفرع الثاني: مظاهر الطبيعة في المعلقة:

أ. الصحراء: كونها مسرح الوجود البدوي

الصحراء في الشعر الجاهلي ليست مجرد فضاء مكاني، بل هي القدر الجغرافي الذي صاغ حياة الإنسان الجاهلي.

في معلقة امرئ القيس نقرأ وصفًا دقيقًا للصحراء التي يقطعها الفارس بحثًا عن الحبيب أو في مطاردة الطرائد:

>> قِفَا نَبِكٍ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ
بَسِقَطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلٍ <<⁷

هنا الصحراء ليست خلفية جامدة، بل هي خريطة وجدانية تربط بين المكان والذاكرة، في هذا المطلع يحدّد الشاعر مواضع صحراوية (سقط اللوى، الدخول، حومل)، وهي أسماء أماكن في البادية، مما يمنح النص بعدًا جغرافيًا حقيقيًا ويجعل الصحراء إطارًا للذكرى والحنين.

ومن وصفه لطبيعة الديار الصحراوية وآثارها:

فَتَوَضَّحَ فَاَلْمَقْرَأَةُ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا
لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ

هنا يحضر أثر الرياح (الجنوب والشمال) في طمس المعالم، وهو تصوير دقيق لحركة الطبيعة في الصحراء.

ومن تصويره لليل في الفلاة:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لَيْتَلِي

فالليل في الصحراء يمتدّ كثيفًا موحشًا، يشبه موج البحر في ظلمته واضطرابه.

ومن وصفه للناقة في اجتياز الفلاة:

وقد أغتدي والطير في وُكُنَاتِهَا بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكَل

فالناقة هنا وسيلة اختراق الصحراء، سريعة قوية، تمكّن الشاعر من مغالبة قسوة الفضاء الصحراوي.

ب. المطر: رمز الخصب والتجدد

المطر في حياة البدوي حدثٌ كوني، لأنه يرتبط بالخصب وعودة الحياة بعد القحط. من الأبيات التي يستحضر فيها طرفة بن العبد صورة السحاب المرتبط بالمطر، قوله في معلقاته وهو يصف ناقته:

>> كَأَنَّهَا سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنْ مُتْنِهَا تَجُودُ بِوَابِلٍ مِنْهُ وَتَحْمِي بِمَنْهُمْ <<⁸

كأنها سحابة صيف: >> يشبه ناقته بسحابة صيف، وهي سحابة معروفة بسرعة حركتها وغزارة مطرها أحياناً <<⁹.

تجود بوابل >>: الوابل هو المطر الغزير، ويستعمله الشاعر للدلالة على القوة والفيض. <<¹⁰

تحمي بمنهم >>: أي ينصبّ منها المطر بغزارة. <<¹¹

يوظّف الشاعر صورة المطر والسحاب ليعبّر عن: سرعة الناقة، قوتها، فيض عطائها في السير

كما يعتبر المطر هنا رمز للخصب والقوة والحركة، وهو من الصور الطبيعية الشائعة في الشعر الجاهلي.

والمطر هنا امتداد للعاطفة الإنسانية، >> فكما يُحيي الأرض يُحيي الشاعر وجدانه <<¹².

ج. النجوم والسماء: دلالات هداية

النجوم كانت بالنسبة للبدوي وسيلة ملاحاة ليلية، لكنها تحولت في الشعر إلى رموز دلالية حيث شكّلت النجوم والسماء في الشعر الجاهلي علامات للهداية في الصحراء، ورموزاً للثبات والعلو والمعرفة، وفيما يلي نماذج شعرية جاهلية بارزة في هذا الموضوع مع دلالاتها، من ذلك يقول عنتر بن شداد¹³:

<> وَلَقَدْ هَدَتْنِي نَحْوَهَا وَتَصَدَّقَتْ نَجْمُ السَّمَاءِ وَكُلُّ نَجْمٍ هَادِي <>

يصرّح الشاعر بأن النجوم تهدي المسافر، وهي دلالة واقعية، إذ كان العربي يهتدي بها في الصحراء، كما تحمل دلالة رمزية للهداية واليقين.

كما يقول زهير بن أبي سلمى¹⁴:

<> بِهَا الْعَيْسُ تَعْرِفُ وَجَهَهَا فِي سُراها كَمَا اهْتَدَتْ الْأَنْجُمُ لِلْسَّارِي الْمُضِلِّ <>

يشبّه اهتداء الإبل في الصحراء باهتداء الإنسان بالنجوم، مما يعكس وظيفتها الأساسية كدليل ملاحي في البيئة الصحراوية.

ويقول لبید بن ربیعة¹⁵ :

<> حَتَّى إِذَا اسْتَيْقَظَ الرُّقَادُ أَبْصَرُوا نَجْمَ السَّمَاءِ وَهَادِي اللَّيْلِ لَمْ يَغِبْ <>

النجوم هنا رمز للثبات والاستمرار، فهي لا تغيب عن أداء وظيفتها في الهداية، على عكس الإنسان المتغير.

ويقول النابغة الذبياني¹⁶:

<> فَإِنَّكَ كَالنَّجْمِ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ إِذَا مَا تَضَلَّ الْهَادِيَاتُ السَّوَابِلُ <>

يشبّه الممدوح بالنجم الذي يهتدي به الناس، وفي ذلك رفع لمكانته، وربط بين النجوم والهداية والقيادة .

في الشعر الجاهلي، تؤدي النجوم والسماء ثلاث وظائف أساسية متمثلة في وظيفة واقعية من خلال الهداية في السفر وتحديد الاتجاه، وظيفة رمزية في تمثيل الثبات والسمو والعلو، وظيفة نفسية وجمالية من خلال التعبير عن التأمل والوحدة والاعتراب. فالسماء عند الشاعر الجاهلي ليست مجرد فضاء طبيعي، بل نظام دلالي يهدي الجسد في الصحراء، والروح في الوجود.

3. الطبيعة بوصفها سندًا وجوديًا:

الوظيفة المعرفية للطبيعة تمد الشاعر بأدوات للتشبيه والقياس، فالصحراء مرآة للصبر، والمطر رمز للكرم، والنجوم معيار للثبات، كما لها وظيفة وجودية فالطبيعة ضمان للاستمرار، إذ ترتبط حياة البدوي بالمطر والكأ والنجوم التي تهديه في سفره، كما تحمل وظيفة جمالية كون الطبيعة تصوغ صورًا شعرية باهرة، مثل تشبيه الخيل بالسحاب أو النساء بالبدر.

الفرع الثالث: الطبيعة بوصفها سندًا وجوديًا:

الوظيفة المعرفية للطبيعة تمد الشاعر بأدوات للتشبيه والقياس، فالصحراء مرآة للصبر، والمطر رمز للكرم، والنجوم معيار للثبات، كما لها وظيفة وجودية فالطبيعة ضمان للاستمرار، إذ ترتبط حياة البدوي بالمطر والكأ والنجوم التي تهديه في سفره، كما تحمل وظيفة جمالية كون الطبيعة تصوغ صورًا شعرية باهرة، مثل تشبيه الخيل بالسحاب أو النساء بالبدر.

الفرع الرابع: تحليل نماذج إيكولوجية من المعلقة:

أ. امرؤ القيس: شاعر الطبيعة المتحركة:

يوصف بأنه "الملك الضليل"، لكن في شعره نجد الطبيعة حيوية متقلبة: المطر، الريح، الحيوانات...، ففي وصفه للبرق:

>> كأَنَّ الثريا غُلِّقَتْ في مصامِعٍ من البرقِ في كفِّ السماءِ مُدْهِمٌ <<¹⁷

هنا تتحول الطبيعة إلى مشهد مسرحي كوني يشبه معاناة الشاعر في رحلته الوجودية.

ب. زهير بن أبي سلمى: شاعر الطبيعة الحكيمة

عنده الطبيعة أشبه بمعلم أخلاقي، يشبه الحرب بـ"النار إذا أضرمت" والمطر بالخير العميم الذي يشمل الجميع.

في معلقته يقول:

>> فتنج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عادٍ ثم تُرْضِع فتفطم <<¹⁸

الطبيعة هنا تتجاوز المشهدية لتصبح رمزاً تحذيرياً من مغبة الحروب.

ج. عنتر بن شداد:

الطبيعة كساحة بطولة حيث يصف الفروسية في قلب الصحراء، حيث الغبار والخيول والأمطار، يقول:

>> وخيلٍ قد دَلَفْتُ لها بخيلٍ على وجلٍ نَحَاهُ القُلُوبُ <<¹⁹

الطبيعة هنا ليست محايدة، بل شريك في البطولة، تحفز الشاعر على المقاومة.

فإذا: حضور الطبيعة في المعلقات حضورٌ وجودي قبل أن يكون جمالياً، فقد تجلت في صور عدة منها:

• فضاء الذاكرة عند امرؤ القيس.

• رمز الخصب والأخلاق عند زهير وطرفة.

• مسرح البطولة عند عنتر.

لم يكن الهم البيئي حاضراً كما في النقد الإيكولوجي الحديث، لكن علاقة العربي القديم بالطبيعة كانت علاقة حياة أو موت، علاقة اندماج كلي، وهذا ما جعل الشعر الجاهلي بمثابة "وثيقة بيئية — وجودية" بامتياز.

في المعلقات، حضرت الطبيعة (الصحراء، المطر، النجوم) كخلفية للحياة البدوية، ولم تكن إشكالية بيئية بل سنداً وجودياً.

نقرأ في نصوص الشعراء في العصر الجاهلي أن الأشجار تصرخ، والأنهار تحتج، والطيور تُهَجَّر من أعشاشها، في استعارة كبرى تعكس التحولات البيئية التي يشهدها العالم²⁰، هذا التجسيد يعكس وعياً بأن الأرض ليست ملكية للإنسان وحده، بل شريكته في المصير. كما أن الإيكولوجيا الشعرية تتجاوز المنظور الرومانسي الذي رأى في الطبيعة ملاذاً وجنة فردية، إذ تعيد تعريفها بوصفها "مقاومة" في وجه التمدّن المتوحش، فالشعراء يوظفون الطبيعة لإدانة مشاهد الخراب الحضري، والتنديد بالاغتراب الذي فرضته المدن الحديثة، حيث يختفي الخضرة والفضاء المفتوح لتحل مكانها الخرسانة والضجيج²¹، وبذلك تصبح القصيدة بمثابة "بيان بيئي" يحاول استعادة التوازن المفقود بين الإنسان وعالمه.

ومن هنا يمكن القول إن الإيكولوجيا الشعرية ليست فقط خطاباً جمالياً، بل أيضاً موقفاً أخلاقياً وسياسياً، فهي تطرح أسئلة تتعلق بمصير الكوكب، وتُعيد النظر في علاقة الإنسان بما حوله، من منطلق الدفاع عن كرامة الأرض وحق الأجيال المقبلة في بيئة سليمة.

خاتمة:

تكشف هذه الدراسة، من خلال مقارنة إيكولوجية للنص الشعري العربي القديم، أنّ العلاقة بين الشاعر وبيئته لم تكن علاقة وصفية عابرة أو زخرفية جمالية، بل كانت علاقة وجودية عميقة تؤسس لرؤية كونية متكاملة، يتداخل فيها الطبيعي بالإنساني، والمادي بالرمزي، فقد حضرت عناصر البيئة — من صحراء ومطر ونجوم وكائنات حيّة — بوصفها أنساقاً دلالية فاعلة، تسهم في بناء المعنى، وتعبّر عن وعي الشاعر بموقعه داخل منظومة كونية تتجاوز مركزية الإنسان، وتؤكد انتماءه العضوي إلى الطبيعة.

وقد أظهر التحليل أنّ الشعر العربي القديم، ولا سيما شعر المعلقات، يتضمن أنماطاً إيكولوجية متعددة، تجلّت في نسق الانسجام الذي يعكس التآلف بين الإنسان ومحيطه

الطبيعي، ونسق المقاومة الذي يبرز الطبيعة بوصفها قوة موازية للوجود الإنساني، ونسق التحول الذي يعكس هشاشة الكائن أمام تقلبات البيئة، وبهذا المعنى، يمكن النظر إلى النص الشعري القديم بوصفه "وثيقة إيكولوجية" تحمل تمثلات ثقافية عميقة للطبيعة، وتؤسس لرؤية بيئية تتجاوز المنفعة إلى الإدراك الوجودي.

كما بينت هذه الدراسة أنّ النقد الإيكولوجي، بوصفه مقارنة نقدية حديثة، يتيح أفقاً تأويلياً جديداً لإعادة قراءة التراث الشعري العربي، والكشف عن الأبعاد البيئية الكامنة فيه، بما يساهم في إثراء الدرس الأدبي العربي، وربطه بالتحوّلات النقدية المعاصرة، فالشعر العربي القديم، وإن لم ينشأ في سياق أزمة بيئية بالمعنى الحديث، إلا أنّه عبّر عن وعي عميق بالاعتماد المتبادل بين الإنسان والطبيعة، وهو وعي يمكن استثماره اليوم في بناء خطاب ثقافي يعيد الاعتبار للتوازن البيئي، ويقاوم النزعة الاستهلاكية التي أفرزتها الحداثة التقنية.

ويمكن القول، في ضوء ذلك، إنّ استحضار الأنساق الإيكولوجية في الشعر العربي القديم لا يمثل مجرد استعادة جمالية للماضي، بل هو فعل تأويلي يساهم في إعادة بناء وعي بيئي معاصر، يجعل من النص الشعري فضاءً للحوار بين الإنسان والطبيعة، ويؤكد أنّ الشعر، في جوهره، ليس فقط تعبيراً عن الذات، بل أيضاً صوتاً للأرض، وذاكرةً للبيئة، وشهادةً على وحدة الوجود في تنوّعه وتفاعله المستمر.

الهوامش:

Buell, Lawrence. *The Environmental Imagination: Thoreau, Nature Writing, and the -1 Formation of American Culture*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1995 ص 14، 7

2 - Garrard, Greg. *Ecocriticism*. 2nd ed. London: Routledge, 2012 ص 5.

3 - Glotfelty, Cheryl, and Harold Fromm, eds. *The Ecocriticism Reader: Landmarks in -3 Literary Ecology*. Athens, GA: University of Georgia Press, 1996 ص 18.

4 - Iovino, Serenella, and Serpil Oppermann, eds. *Material Ecocriticism*. Bloomington: Indiana University Press, 2014 ص 12.

- 5 - العطوي، عبد الله، *النقد الإيكولوجي: مدخل إلى دراسة الأدب والبيئة*، عمان: دار كنوز المعرفة، 2018، ص 21.
- 6 - نفس المرجع، ص 22
- 7 - الزوزني، الحسين بن أحمد، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، شرح المعلقات السبع، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، ط1، 1964، ص 1
- 8 - ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: درية الخطيب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1961، ص 59.
- 9 - الزوزني، الحسين بن أحمد بن الحسين، *شرح المعلقات السبع*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، مصر، 1964، ج 1، ص 68
- 10 - نفس المرجع، ص 69
- 11 - نفس المرجع، ص 70
- 12 - العطوي عبد الله، *النقد الإيكولوجي: مدخل إلى دراسة الأدب والبيئة*، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، ط1، 2015، ص 21.
- 13 - الزوزني حسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، ص 22
- 14 - نفس المرجع، ص 23
- 15 - نفس المرجع، ص 35
- 16 - نفس المرجع، ص 36
- 17 - ديوان امرئ القيس، جمع وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر 1977، ص 52
- 18 - ديوان زهير بن أبي سلمى، تحقيق: فخر الدين قباوة، القاهرة، مصر، ط1 1964، ص 66
- 19 - ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ص 84
- 20 - الجابري، محمد عابد، نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1980، ص 112.
- 21 - ينظر: أدونيس، مقدمة للشعر العربي. دار العودة، بيروت، لبنان، 1971، ص 45-60